بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ أحمد الكلاس

من تفسير سورة القصص

الحمد لله ثم الحمد لله، الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، أحمده وأشكره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله فرد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأشهد أن سيدنا ونبينا وحبيبنا وعظيمنا وقرة أعيننا مُحَمَّداً عبده ورسوله وصفيه وحبيبه وخليله، أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، بشيراً ونذيراً، وجعله داعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، اللهم صل على سيدنا مُحَمَّد، وعلى آله وأصحابه، وعلى الفقهاء الأربعة المجتهدين، وعلى مقلديهم إلى يوم الدين.

أما بعد عباد الله، فإنما أوصيكم وإياي بتقوى الله عز وجل، واعلموا –معشر المؤمنين– أن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

هذه الحلقة الثالثة مع سورة القصص، أسأل الله تعالى أن يحيينا جميعاً وإياكم بالأمن والأمان، وأن يردنا إلى دينه رداً جميلاً كما رد موسى إلى أمه، وأن يجعلنا مع الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ [القصص: ٧] الوحي هنا وحي إعلام وليس وحي رسالة، لذلك لا تسمى أم موسى نبية، كما لا تسمّى أم عيسى مريم نبية، لأن الوحي أنواع: فيه وحي برسالة كما يكون للأنبياء والمرسلين، وفيه وحي إلهام أو وحي إعلام كما يقول ربنا: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨] كما يكون الوحي من باب الضلال، ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] إذاً الوحي أنواع ما اتصل بالرسالات والأنبياء فهو وحي نبوة ورسالة وشرع أما ما كان على غير

ذلك: فإما أن يكون إعلاماً، وإما أن يكون تخييماً، وإما أن يكون فطرة فطر الله النحل عليها، يعني أوحينا إلى أم موسى أعلمناها، والمسألة هنا مجملة ليست مفصلة، وعلى أي وحي كان هذا؟ ذكر المفسرون فيها عدة أقوال يمكن، أن يكون كذلك كما لو تسمع شخصا يكلمها، والذي نقول عنه يحدث الرجل نفسه الكلام النفسي ويمكن رؤيا بالمنام، وغير ذلك من الأقوال، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ [القصص: ٧] هذا أمر هذه الآية، فيها من البلاغة معشر المؤمنين ما يعجز فصحاء العرب على أن يأتوا بمثلها فهي آية واحدة في كتاب الله عز وجل، فيها أمران ونهيان وبشارتان وخبران، آية واحدة في كتاب الله عز وجل فيها أمران أن أرضعيه -هذا هو الأمر- الأول، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم -هذا هو الأمر الثاني- ولا تخافي- هذا نهي ولا تحزني نهي آخر- إنا رادوه إليك إشارة وخبر، وجاعلوه من المرسلين، إشارة وخبر، والحمد لله على أن أنعم الله عليه أنا نتلذذ بقراءة كلام الله عزوجل ونتعبد الله تعالى به وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٧] حنان الأم -معشر المؤمنين- إذا خافت على شيء ضمته على صدرها، وهنا الأمر الإلهي يأتي على عكس ما فطر الله تعالى المرأة عليه، لأن الأمر الإلهي هو أمر رحمان رحيم، تتلاشى معه عاطفة الأمومة، تتلاشى عاطفة الأمومة أمام وارد الرحمن، ولا يمكن أن يكون بعد ذلك وارد للشيطان، ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أمرٌ، اليم هو البحر، وهو نيل مصر ﴿ولا تخافي﴾ نهي، ﴿ولا تحزني﴾ نهي آخر، الخوف غير الحزن، الخوف يكون من مستقبل، والحزن يكون من شيء حَالٍّ في المستقبل أو حَالٍّ في الحال أو فيما يكون، فإذاً لا تخافي غير لا تحزني، لأن رابط القرآن ممنوع لأنه كلام الله عز وجل فلا يوجد في كلام الله عز وجل كلام مكرر من غير فائدة ولا معنى، ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْك﴾ على أحسن وأتم وجه، ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيكِ﴾ لتستمتعي برضاعته، ولتمن عليك امرأة فرعون بالعطاء مقابل

الإرضاع، لتعيشي في بحبوحة بفضل رعاية هذا المخلوق الرسول، ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ رداً جميلاً، رداً حسناً، رداً منعماً، رداً فيه عطاء، ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرسَلِينَ﴾ لَيس محفوظاً بالحياة، وفرعون أراد أن يقتل الأولاد، لكنه لما نظر إلى استئصال أبناء بين إسرائيل جعل عاماً يُحيي فيه المواليد، وعاماً يُذبح فيه المواليد أو يقتلهم، فهارون عَاش بالعام الذي تُحيا فيه الأولاد ولا تقتل، أما مُوسى فقد ولد في العام الذي يُقتل فيه الأبناء من بني إسرائيل، فما سبب غضب القبط، وقُلنا -في جمعة ماضية- أن القبط اسم لأسماء المصريين، فلما انتشرت الديانة النصرانية من روما جعلوا هذا الاسم أو هذه الصفة للذي يكون مسيحياً متنصراً على دين النصرانية، وإلا فالأصل أن يكون اسماً مصرياً، فما الذي أغضب القبط وفرعون على بني إسرائيل؟ لما انتشروا وكثروا ظهر ظلمهم للقبط واستعلائهم عليهم بكثرتهم بما فيهم من خداع وتلون، فسلط الله عليهم فرعون، وسبب تقتيل الأبناء والأولاد أن فرعون أُعلم مما يعلمه الكهنة -مما يسترقون السمع قبل ولادة رسولكم فحجبت السماء بالشهب فلا يستمعون شيئاً سمعوا هؤلاء الكهنة- أن فلاناً من بني إسرائيل وسيكون زوال ملك فرعون على يديه، من أجل ذلك استقصى في قتل الأبناء، فكان عدد من قتل كما يُقال سبعون ألفاً، ويُقال تسعون ألفاً، إذاً الزمن الذي وُلد فيه موسى عليه السلام زَمنٌ عَصيب، فإذا جاءت رحمة الله عز وجل حفظ الله عباده، لذلك هذه الآية فيها من تعليق القلوب بالله عز وجل وبما جاء به أن يرفع هذه الأمة هذه الفتن، وأن يُحيينا بسلامة وعافية، وأن يَحفظنا كما حفظ الأنبياء والمرسلين.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ جاء الأمر الأول والوحي الأول بالرضاعة، فقيل أرضعته ثلاثة أشهر، وقيل أربعة، ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ كانت القابلة التي تُعالج أم موسى من القبط، وكانت عيناً لفرعون، وجاءت تتحسس خبر وليدها، أَغُلاماً ليقتل أو يذبح، أو فَتاة فتبقى حية؟ فلما ولدته ورأته غلاماً سَطع له نورٌ أخذ عليها مجامع قلبها، فأحبته، فقالت: ما جِئت أعالجك في ولادتك إلا لأنقل أنَّك ولدت

غلاماً ليقتله فرعون، ولكنني أحببته حباً شديداً، فاحتضنيه، فخرجَتْ من عندهم، وجاء عسس فرعون، ويذكر المفسرون أن أمه قبل أن تلقيه في اليم لفته بخرقة، ثم جعلته في تنور مسجور وهي لا تدري ماذا فعلت، التنور المسجور هو التنور الذي يُخبز فيه الخبز، والمسجور يَعني يُوقد، يَعني مَوقودٌ مِن نار لينضج عليه الخبز، أو هو في آخر ما يَكون به من حطب يشتعل، جعلته في التنور، وسجرته كما يُسجر الحطب في التنور، فلما نظروا في البيت فلم يَجدوا شيئاً، حتى لما خَرجوا: رواية عادت إليه فأخرجته، ورواية أخرى سمعت صوته فأخرجته من التنور، لم تحرقه ولم تحرق خرقته، وكان ذلك سلاماً عليه كما كان سلاماً على إبراهيم عليه السلام، ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] هذه الآية –معشر المؤمنين– تُعَلِّق قلب المؤمنين بالله عز وجل، لا بُد أن يَجد في كون الله ما يريد الله عز وجل، لا بد ذلك، فإذا وقع قضاء الله وقدره على قلب المؤمن سلم لله عز وجل، وكان انتظاره للفرج بالرضا عبادة، فإذا كان على غير إيمان انخبط في الوجود خبط عشواء، من تُصب تمته أو ربما يُميت نفسه، تَخَبَّط خبط عشواء أو يَعمر فيهم في الضلال، في العجب، في البلاء، ونسأل الله عزوجل السلامة والعافية.

هذه الآيات –معشر المؤمنين– لها آيات في المقابل في سورة طه، قال تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ هذا الوحي الثاني في القذف في التابوت، الوحي الأول للرضاع، الوحي الثاني ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوت﴾ القذف هو الإلقاء بشدة، والقذف يتنافى مع رحمة الأم ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ في السورة الأولى في سورة القصص، وها هنا ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ قذفتان: الأولى في التابوت، والثانية في اليم، ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ لماذا؟ رحمة به، لأن جانب الساحل هو صغار الأسماك، لا يُمكن أن يخرج إليه وحش من وحوش البحر فيلتقمه ويأكله، لكن في الساحل صغار الأسماك والبشر ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾

رحمة الله ولطف الله وإرادة الله أن يسلم هذا النبي ليكون مُبشراً بالجنة لأتباعه إذا طبقوا شرع الله، وليكون مُرَهباً من النار لكل من خالف أمر الله وعصى ربه، يُقال إن النجار الذي صَنع التابوت من البردي -وهو نوع من الخشب- وكان طوله وعرضه خمسة أذرع بخمسة أذرع -كما يقول الإمام الحافظ القرطبي- ودهن من الداخل بالقان حتى لا ينفذ إليه الماء، ولما وضع سيدنا موسى في هذا التابوت لما وضعته أمه ذَهب هذا النجار لِيَشِيَ بما سَتفعل أم موسى، فلما جاؤوا وأرادوا أن يَأخذوه جاء الاستعجال بالأمر الإلهي، والأم لا تقذف وليدها، بل تَضعه بحنان وشفقة، ولكن الوقت هُنا ضَيِّق لا يتسع لممارسة الحنان والشفقة، فألقته وجعلت على ذلك التابوت قِفلاً، وجعلت المفتاح مع القفل، فألقاه اليم في الداخل، ليأخذه عدو لي وعدو له، فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً، أما تتمة الآيات فسنأتي عليها إن شاء الله الجمعة القادمة، ما يُوقفنا الآن من حضارة المسلمين، وحضارة الطفل الإسلامي العظيم، التي تتحدى به الأمة الإسلامية جمعاء كل قوانين الدنيا، قال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] ولو فتحت كتاب الفقه وجدت باب العاشر، والذي يأخذ الزكاة من الأموال الظاهرة، الإبل والغنم والبقر، يَؤخذ من المسلم على العشر إذا بلغ نصاباً وحال عليه الحول، ربع العشر، يعني ٢,٥ بالمائة، ومن الذمي نصف العشر، يعني خمسة بالمائة، ومن الحربي العشر، من الذمي ومن الحربي يُؤخذ ذلك حماية له ولتجارته ولعرضه ولغلمانه ولما معه من متاع، فإن علمنا أنهم يَأخذون منا أقل أخذنا منهم أقل من العشر، وإن علمنا لا يأخذون شيء وهم حربيون يُحاربوننا في بلادهم دخلوا بلادنا للتجارة، وإن علمنا لا يأخذون منا شيئاً لا نأخذ منهم شيئاً، فإن اعتدوا على تجارنا في بلاد الفرنجة، وأخذوا كل أموالهم ومتاعهم وغلمانهم وما معهم أخذنا منهم كل شيء إلا ما يُبلغهم العودة إلى بلادهم.

﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ هذا الرد كما جعله الله سبحانه وتعالى شرعاً لأم موسى أن تَفرح بهذا الطفل ليكون بشيراً ونذيراً ونبياً مرسلاً للعالمين، كذلك هُناك من اللطف وهنالك من قضاء الله وقدره على الأمة الإسلامية في دين ارتضاه الله للناس جميعاً، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] إذا أخذوا من تجارنا كل شيء، فجعل الرجل يَسأل ليأخذ، وليس عنده ما يبلغه بلده وموطنه ومأمنه، إذا فَعلوا بنا ذلك ماذا نفعل بهم؟ نأخذ منهم كل شيء إلا ما يبلغهم مأمنهم، لأنَّا أحق بالكرامة منهم، ولأنَّا أحق بالأخلاق، وهذه أخلاق نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام، هذه أخلاق نبينا عليه الصلاة والسلام.

اعلموا –معشر المؤمنين– أن صلاح الدين الأيوبي لما فتح الله عليه بلاد بيت المقدس، ماذا جعل ليخرج منها المحاربون الذين احتلوا بيت المقدس تحت اسم الحروب الصليبية، ماذا فَعلوا لما دخلوا فذبحوا سبعين ألفاً رجلاً من أهل بيت المقدس، لما فتح الله على صلاح الدين الأيوبي لم يَفعل بهم ما فعلوا بنا ولن يجعلهم أسرى يغالي في فدائهم كما يجعلون اليوم ويفعلون بهذه الأمة المستضعفة في بلادنا لأن تؤمن بالله رب العالمين، أخذ من الرجل القادر عشرة دنانير لينجو بنفسه، أما أغنيائهم فلم يتصدق واحد من الصليبين على فقير منهم ليرجعوا إلى بلاد الروم وإلى بلاد الفرنجة، تَركوهم يَظنون أن المسلمين سيستعبدونهم، يظنون أن المسلمين سيقتلونهم، يَظنون ويظنون، كذبوا وربكم، هذه الأمم الملحدة التي تتحد على قتلنا تقول: عندها نظام اسمه نظام حقوق الإنسان، نحن نعرفه قبل أربعة عشر قرناً ونيفاً، ونفاخر به بفضل الله عز وجل، ماذا فعل صلاح الدين؟ لم يبق في بيت المقدس إلا المستضعفين من أهل الذمة، ولم يكونوا آل ذمة، لكنهم لم يلجؤوا إلا للاستكانة، لا يوجد عندهم شيء من مال، كانوا عبيداً لهم وعسكراً عندهم وخدماً عندهم، ماذا فعل بهم صلاح الدين؟ هل استخدمهم في البناء؟ هل استخدمهم في العمارات؟ في

الأعمال الشاقة؟ استأجر لهم سفينتين كبيرتين عظيمتين حَمل بها هؤلاء المستضعفين من الصليبيين الذين كانوا يحاربوننا وأنفق من بيت مال المسلمين ما يُبلغهم مأمنهم، هذا هو ديننا، وهذه هي حضارتنا، يُريدون أن يعلموننا حقوق الإنسان؟ كَذبوا ورب الكعبة، ((إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإن قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحِدَّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته)) ، ونهى النبي ﷺ أن تُحد شفرتك أمام الذبيحة تريد ذبحها، وهي أضحية لك، نهى النبي ﷺ أن تذبح شاة أمام أختها، إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم، فيا فوز المستغفرين استغفروا الله ...